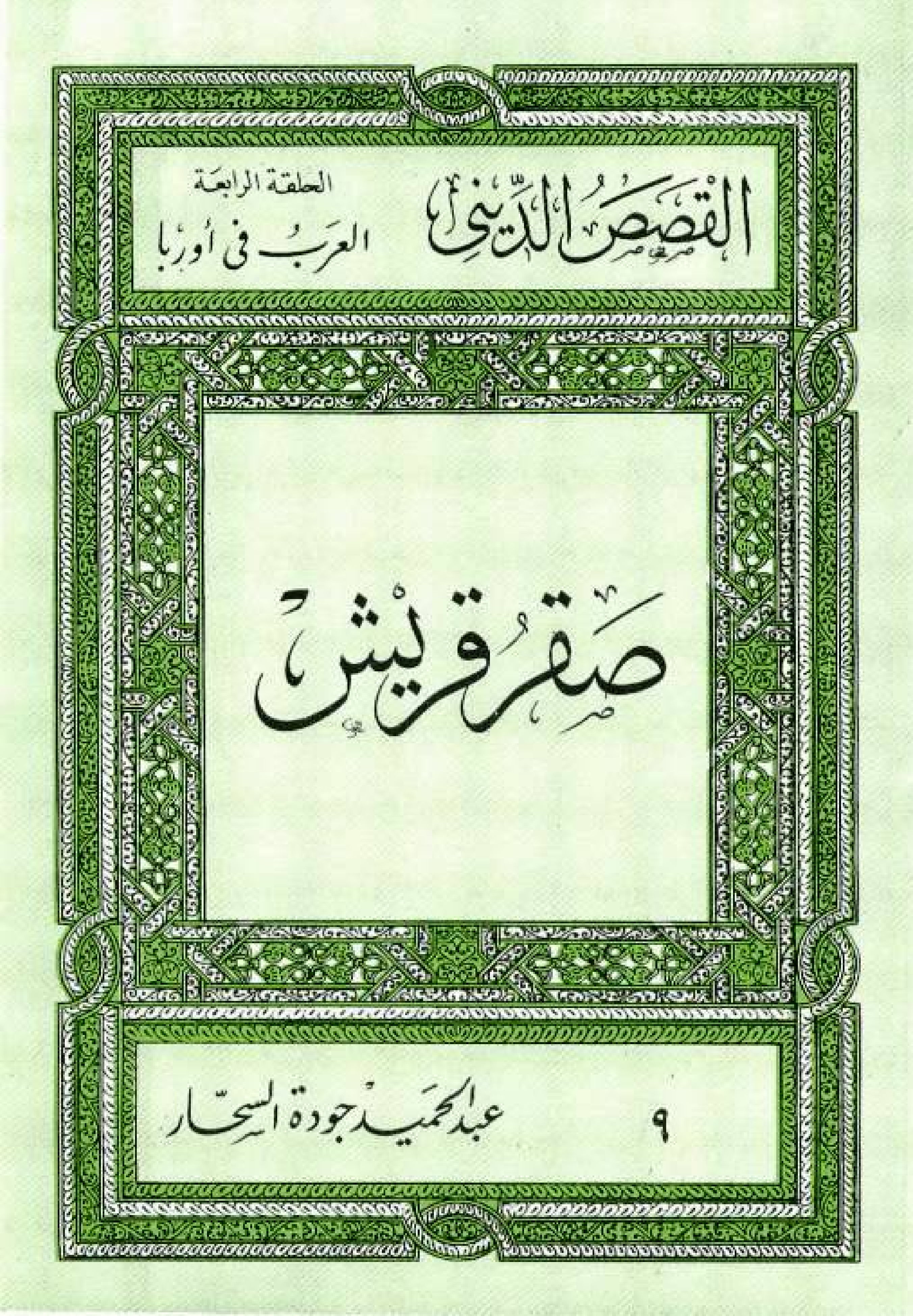

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب فى أوربا
صقر قريش
عبد الحميد جودة السحار
٩

١

زالَ مُلكُ بنى أُمَيَّةَ من المشرِق ، واستَتَبَّ الأمرُ لأبى العَبَّاس ، أولِ خليفةٍ عبَّاسىّ ، وانتقَلَ المُلكُ من « دِمشق » إلى « بغداد » .

وَوَلَّى أبو العبَّاسِ عمَّه عبدَ اللّهِ بنَ علىٍّ الشامَ ، فبعثَ عبدُ اللّهِ إلى بنى أُمية ، وأظهرَ للنَّاسِ أنَّ أميرَ المؤمنين وصَّاه بهم ، وأمَرَه بصِلَتِهم ، وإلحاقِهم فى ديوانِه ، وردِّ أموالِهم عليهم ، فقدِمَ عليه من أكابرِ بنى أُميَّةَ وخِيارِهم ، ثلاثةٌ وثمانونَ رجُلا ، كان فيهم عبدُ الرَّحمنِ بنُ معاويةَ بنِ هِشام .

انطلَقَ عبدُ الرَّحمنِ ليدخلَ على الأمير ، وفيما هو فى طريقه ، لَقِيَه رجلٌ كان عبدُ الرَّحمنِ أحسنَ إليه ، فقال له الرَّجل :

- أَطِعِنِي اليومَ في كلِمة ؛ ثم اعصِنِي إلى يومِ القِيامة .

فقال له عبدُ الرَّحمن : « وما أطِيعُكَ فيه اليوم ؟ » .

فقال له الرَّجل : « أدْرِك مَوضِعَ سُلطانِك وقاعِدَتَك المغرب . النَّجاءَ النَّجاء ! فإنَّ هذا غَدْرٌ من السَّفَّاح ، وهو يُريدُ قَتْلَ من بَقِيَ من بني أُميَّة » .

فقال له عبد الرحمن : « وَيحَك ، إنَّه كِتابُ أبي العَبَّاس قَدِمَ عليه ، يأمُرُه فيه بصِلَتِنا ، ورَدِّ أموالِنا إلينا ، وإلحاقِنا بالعَطاء الكامل ، والرِّزقِ الوافِر » .

فقال له الرَّجل في حماسة : « وَيْحَكَ الغَفَل ! واللّه لا يستَقِرُّ ملكُ بني العبّاس ، ولا يستَولونَ على سُلطان ، ومنكم عَينٌ تَطْرِف » .

فقال له عبدُ الرَّحمن :

- ما أنا بالذي يُطيعُكَ في هذا .

فراحَ الرَّجل يتوسَّلُ إليه ، قال :

ـ النَّجاءَ النَّجاء . والهَربَ الهَرب ، فاخرُج فأنا معَك ، ومالِي لك ، ولى عشرونَ ألفَ دينارٍ مصرورة ، كنت أعدَدتُها لهذا الوقت .

وظَلَّ الرَّجلُ يُجادِلُه ، حتّى أقنَعَه بالهرب ، فَخَرَجَ عبدُ الرَّحمنِ يُريدُ المغرب ، ودخَلَ أكابِرُ بنى أُميَّةَ على عبدِ اللّهِ بنِ علىّ ، فَقَتَلَهم ، وأخَذَ أموالَهم .

٢

سارَ عبدُ الرَّحمنِ ومَولاهُ بَدْرٌ إلى المغرب ؛ ولما استقَرَّ به المَقام ، واطمَأنَّ أنَّه أصبَحَ بعيدًا عن أمَراءِ بنى العَبَّاس ، بعثَ مَولاهُ بدرًا إلى الأندلُس ، يدعو له ، ويُمَهِّدُ لدخولِه عندَ شِيعةِ بنى مروانَ هناك .

وبلغَ بدرٌ الأندلس ، وكانت العَدواتُ ناشِبةً بين اليَمنِيَّةِ والمُضَرِيَّة ، فاتَّفقَتِ اليمنيَّةُ على تولِيَتِه ، وشدِّ أزْرِه ، إذا ما وَفَدَ إلى الأندلس ، ورجَع بدر مَولاهُ إليه بالخبر .

وفى سَنةِ ثَمانٍ وثلاثينَ ومِائَة ، فى خِلافَة أبى جَعفَرٍ المنصور ، أجازَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ معاويةَ البحرَ وحدَه ، لا يُرافِقُه إلا بدرٌ مولاه ، وشبابُه ، وعزيمتُه الماضية ، وعقلُه الرَّاجِح ، وإرادَتُه الحديديَّة ، وحِذْقُه الشَّديد ، وشخصِيَّتُهُ الجبَّارةُ القَويَّة .

ونَزَلَ بساحِلِ الأندلُس ، فأتاهُ قَومٌ من أهلِ إشبيليةَ فبايعُوه ؛ ثُمَّ انتقَلَ إلى كُورةِ رَيَّة ، فبايَعَه عامِلُها ؛ وانطلَقَ إلى قُرطُبة ، فاجتَمعَت إليه اليمنيَّة ، ونُمِيَ خبرُه إلى والى الأندلُس ، يوسُفَ

ابنِ عبدِ الرَّحمنِ الفِهرِيّ ، وكان غازِيًا بجلّيقِيَّة ، فرجَعَ إلى قُرطبة ، ليرى ما يجرى هناك .

وقابَلَ يوسُفُ وزيرَه الصَّميلَ بنَ حاتم ، وحادَثَه فى أمرِ عبدِ الرَّحمنِ ، الذى جاءَ من المشرقِ يطلبُ البَيعةَ لنفسِه ، فأشارَ عليه الوَزيرُ بالتَلَطُّفِ له ، والمكرِ به ، لكونِه صَغيرَ السِّن ، حديثَ عهدٍ بنِعمة ، فحاوَلَ يوسُفُ أن يستَميلَ عبدَ الرَّحمنِ الدَّاخل ، وأن يمكرَ به . ولكنْ باءَتْ مُحاولَتُه بالإخفاق ، فقد كان عبدُ الرَّحمنِ صغيرَ السِّنِّ حقًّا ، ولكنه كان راجِحَ العقلِ فَطِنا ، ولم يكن من المَيسُورِ أن يُستَدْرَج ، ليَمكُرَ به يوسُف والصَّمِيل .

وعلا ذِكرُ الدَّاخِل ، وتَوافتْ إليه جنودُ الأمصار ، وتَدَفَّقتْ عليه المُضَرِيَّة ، ولم يَبْقَ مع يوسُفَ غيرُ

الفِهرِيَّةِ والقَيسِيَّة ، فزَحَفَ الدَّاخلُ بجيوشِه ، لِيَقْضِيَ على يوسُفَ ومن معه ، ليستَتِبَّ لـه الأمـرُ فـى الأندلُس .

والتَقَى الجَمعانِ بظاهِرِ قُرطبة ، وانتصَـرَ عبدُ الرَّحمن ، وانكَشفَ يوسُف ، ولجأ إلى غَرناطَة ، فتحَّصَّنَ بهـا ؛ وانطلَقَ خلفَه الأميرُ عبدُ الرحمن ، ليُجهِزَ عليه ، حتّى تُصبِحَ الأندلُسُ له وَحْـدَه ، لا يُنازِعُه فيها مُنازِع .

٣

لم يكنْ لأمَراءِ المسلمينَ فى الأندلُس شغلٌ إلا قتالَ بعضِهم بعضا ، لم يكونوا من بيوتٍ عَريقةٍ فى المُلك ، ولم يكنْ لهم تُراث . أمَّا عبدُ الرَّحمن ، فقدْ كان بقِيَّةَ

أسرةٍ مالِكة ، لها حَضارَتُها وآثارُها ؛ فلمَّا استَتَبَّ له الأمر ، راحَ يبنى المسجِدَ الجامعَ والقَصرَ بقُرطُبة ، ويضعُ بُذورَ أعظَمِ حضارةٍ للمُسلمينَ فى الأندلُس .

وكانَ هَدَفُ المسلمينَ فى الأندلُس ، الاستيلاءَ على فرنسا ، والانطلاقَ منها إلى أورُبَّة ، وكانت الإمداداتُ الإسلاميَّةُ تصِلُ إلى الأندَلُس ، من الشَّامِ ومصرَ والمغرِب ؛ أما وقدْ أصبَحَ العباسيُّونَ حُكَّامَ المشرِق ، وأصبَحَ عبدُ الرَّحمنِ الدَّاخلُ وَحْدَه فى الأندَلُس ، فقد صارَ غَزوُ فرنسا صعبا ، فما كانت الأندلُس وحدَها بقادِرةٍ على تجهيزِ حَمَلاتٍ عظيمة ، كفيلةٍ بالاستِيلاءِ على أورُبَّة .

كانت فرنسا يشتدُّ ساعِدُها يومًا بعدَ يوم ، فقدْ أصبَحتْ كلُّها وحدةً واحدة ، فى يد « بيبين » ؛

وكانت قادِرةً لدى الحاجةِ أن تستعينَ بجيوشٍ جرّارةٍ من ألمانيا وبلجيكا وإيطاليا ، فلم يعُدْ مسلمو الأندلُس ، المهاجمينَ لمسيحيِّى فرنسا ، بلِ انقلَبَ الأمرُ ، وأصبَح « بيبين » يُهدِّدُ حُصونَ العَربِ الأماميَّةَ فى فرنسا ، ويُؤلِّبُ الثّائرينَ على أمرِهم فى قُرطُبة ، ومِمَّا زادَ الطِّينَ بلّة ، التّنافُسُ الشّديدُ بينَ الخليفةِ فى بغداد ، والأميرِ فى قُرطُبة ، ؛ فقدْ أرسَلَ المنصور ، الخليفةُ العبَّاسِىّ ، من سواحِلِ إفريقيَّة ، أُسطولاً لُمحارَبة عبدِ الرَّحمن الدّاخِل ، ليضُمَّ الأندلُسَ إلى مُلكِه ، ولِتوحيدِ الدّولةِ الإسلاميّة ، كما كانت لعهدِ بنى أميّة .

ونزلَ قائِدُ أسطولِ المنصورِ بباجَةِ الأندلس ، داعيًا لأبى جعفَر ، وقدْ نشَرَ اللِّواءَ الأسود ، شِعارَ

العبَّاسِيِّين ، فـاجتَمعَ إليـه الأُمـراءُ الثَّـائِرون ؛ ولكـنَّ عبدَ الرَّحمن لقِيَه بنَواحِي إشبيلية ، فقاتَلَه أيَّامًا حتـى هزَمَه ، وقَتَلَه فى سبْعةِ آلافٍ مـن أصحابِـه ، وبعـثَ عبدُ الرَّحمنِ برُءُوسِ كثير منهم إلى القَيرَوان ومكّـة ، فأُلقِيَت فى أسـواقِها سِرًّا ، ومعهـا اللِّـواءُ الأسود ، وكتابُ المنصورِ لقائِدِ أسطولِه .

وبلغَ المنصورَ ذلك ، فارتاعَ وقال :

ـ ما هذا إلاَّ شَيطان ، والحمدُ للّه الذى جعلَ بيننَا وبينَه البحر .

٤

تَيَقَّنَ « بيبين » مَلِكُ فرنسا ، من العَـداوةِ النَّاشِـبةِ بينَ بَغدادَ وقُرطُبة ، فلم يكتَفِ بالتَّضريبِ بـينَ أمـراءِ المُسـلِمين ، بـل رأى أن يسـتَعِينَ بـالمَنصُورِ علـى

عبدِ الرَّحمنِ الدَّاخلِ ، عَدُوِّهما المشترك . فَبعَثَ رُسُلَه إلى بَغداد ، ولبثُوا بها ثلاثَ سِنين ، ثمَّ رجَعُوا إلى فرنسا ومعهم رسلُ الخليفة ، فنزلُوا فى مرسيليا ، وصَعِدُوا إلى مقرِّ « بيبين » ، فبالَغَ فى الاحتِفاء بهم ، وقضَوا ذلك الشِّتاءَ فى مدينة « مِتْز » باللُّورين ، ثمَّ أمَرَ بإقامتِهم فى قصْرِ سلس على ضِفافِ اللُّوار ، ثم أُعِيدُوا إلى الشرقِ عن طريق مَرسِيليا ، ومعهم الهَدايا إلى الخليفة .

وفكَّرَ عبدُ الرَّحمنِ ، بعدَ أن استَتَبَّ له الأمر ، فى مدينة « أُربُونة » وما يليها من جنوبِيِّ فرنسا ، فَسَرَّحَ جيشًا زحفَ إلى البيرانيه ، لرفعِ الحِصارِ عن « أربُونة » .

كان جمهورُ أهلِ « أربونةَ » من المسيحِيِّين ، وقد

أثقَلَت كاهِلَهم الحروب ، فبعثُوا إلى « بيبين » سرّا ، يتّفقُونَ معه أن ينتَفِضُوا على المسلمين ، وينضمُّوا إلى جيشِهِ ، على أن يكونوا أحرارًا فى بلدتهم ، وأن تكونَ إدارةُ شُئونهم فى أيديهم ، ووافقَ « بيبين » على ذلك ، فى غفلةٍ من الحامية الإسلامية .

كانت الحاميةُ الإسلاميةُ مطمئنةً لأهالِى « أُربونة » ، وفى غَفْلةٍ منها هجمَ الأهلُونَ عليها ، وأعملُوا سيوفَهم فيها ، فذَبَحُوها عن آخِرِها ، ودَخَلَها « بيبين » وشحَنَها بالحُرّاس ، وانقرَضَت منها حكومةُ الإسلام .

صارَ المسلمونَ يبغُونَ عَرَضَ الدُّنيا . رأَوْا بأعيُنِهم ظِلَّ الإسلامِ يتَقَلّص ، وعلى ذلك كانوا يُبرمونَ معاهدات ، ويُقيمُون عَلاقاتٍ مع الملوكِ الّذينَ

يُناوِئُونَ الإِسلام ، لِيعُودَ حيثُ بدأ .

٥

مات « بيبينُ » وصارَ ابنُه شارلمانُ ملِكا على فرنسا ، فاتّبعَ خُطّةَ أبيه ، فأخَذَ يُحَرِّضُ أمراءَ الأندَلُس ، من مُسلمينَ ومَسيحيِّين ، على عبد الرّحمنِ أميرِ قُرطُبة . كان يقولُ لهذا الفَريق : إنّه إنّما يُريدُ أن يُحرِّرَهم من استبداد عبد الرّحمن ، ويقولُ لذلك الفَريق : إنّه حامى النّصرانيَّةِ الطّبيعيّ ، الحافظُ للكنيسة .

وثارَ أميرانِ من أمراءِ المسلمينَ في مقاطعةِ نهر إبرة ، على عبد الرّحمن ، فاجتازا البيرانيه قاصِدَيْن شارلمان ، واستَعْدَياهُ على أميرِ قُرطُبة . كان شارلمانُ

يرقُبُ هذه الفُرصة ، حتى ينقضَّ على إسبانيا ، ويملُكَ ولو جانبًا منها ، فأمرَ بتعبئَةِ الجيوش ، وسَرعانَ ما خَفَّت إليه جيوشٌ من ألمانيا وفرنسا ولُمبارديا ، وزحفَ بهم إلى البيرانييه .

كان شالمانُ واثِقًا من أنَّ الأهلِينَ سَرعانَ ما ينضَمُّونَ إليه في مَسيرِه ، ولكن أخطأَ حَدَسُه ، فقد ثارَ المسلمونَ في وجهِه ، وقاتلوه قِتالاً مريرا . وتكشَّفَ له أنَّ الأُمراءَ إنَّما استعانُوا به لينالُوا استقلالهم ، لا ليستَبدِلُوا عبدَ الرَّحمنِ بشارلَمان .

وثارَ مسيحيُّو الجبالِ عليه ، فقدْ عَقَدُوا العَزْمَ على ألاَّ يخضَعُوا لحكمِ أجنبِيٍّ أيًّا كان ، فما وصلَ شارلمانُ إلى البيرانيه ، حتى وجدَ نفسَه مُحاطًا بالأعداء .

تحصَّنَ عبدُ الرَّحمن فى سَرَقُسْطة ، فتكَسَّرَت عليها هجماتُ شارلمان ، وأخفقَ فى الاستيلاءِ عليها ، وبينما شارلمانُ فى حربه ، إذ جاءَه الصَّرِيخُ بأنَّ أمــَّةَ السَّكسونِ أبتْ أن تَتُركَ وثنِيَّتَهـا ، وبأنــَّها هبَّــتْ للقِتال ، فاضطُرَّ شارلمانُ إلى مغادرةِ إسبانيا .

٦

كان عبدُ الرَّحمن فى كفاحٍ دائِم ، لتوطيدِ ملكِــه ، الذى أسَّسَــه بقوَّةِ ساعِدِه وحُسنِ تدبيرِه . وكـان يُضطرُّ إلى الشِّدَّةِ أحيانـا ، ليُرهِبَ عدوَّه ، ولكنَّـه كان حليمًا عاقلا ، مُحبًّا للعلوم .

لقدْ قَذَفَ نفسَه فى لُجَجِ المَهالِك ، لابتناءِ مجدِه ، فاقتَحَمَ جزيرةً شاسعة ، تتقسَّمُ جندَهـا العصبيات ،

فاحتالَ حتى أُسلسَ له قِيادُ الأمر ، وأسَّسَ دَولةً مَرهُوبَةَ الجانب ، يخشاها الفِرنج ، ولا يجرُؤُ على مُناوَأتِها خُلَفاءُ بغداد .

وقد أُعجبَ أبو جعفر المنصورُ به ، على الرَّغم مما كان بينهما من عداوة ، فكان يسمِّيه « صقرَ قُريش » ، لمَّا رأى أنَّه فَعَلَ بالأندلُس ما فعل ، وأنه نهَدَ إليها من أنأى دِيارِ المَشرِق ، من غَيرِ عِصابةٍ ولا أنصار ، فغلَبَ أهلَها على أمرِهم ، وتناوَلَ المُلْكَ من أيديهم ، بقُوَّةِ شكيمة ، ومُضِيِّ عزْم ، حتى انقادَ له الأمر .

ومات « صقرُ قُريش » عبدُ الرَّحمنِ بنُ معاوية ابن هِشام ، بعدَ أن أسَّسَ مُلكًا جديدا فَريدًا لبنى أُميَّةَ فى الأندلُس ، وقدِ استَخلَفَ بَعدَه ابنَه هِشامًا .

كان عظيمًا ، وكان جَليلا ، حتّى إنَّ أعداءَه ترحَّمُوا عليه يوم أن مات .